المقتطف

الجزء السادس من السنة الثانية والعشرين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٨ — الموافق ١٢ محرم سنة ١٣١٦

منع الجرائم

بينا نحن نفكر في اختيار موضوع نبدأ به هذا الجزء هجم شابٌّ من العائلة الخديوية على آخر واطلق عليه الرصاص ثلاثاً وكاد يفتك به . وقد اهتمَّ الناس بهذه الجريمة اهتماماً عظيماً لا لندرة الجرائم في القطر المصري بل لانهُ لم تقع فيهِ جريمة من هذا النوع قبل الآن. وبينما رجال الحكومة يبحثون في الاسباب الداعية اليها كانت الرسائل البرقية ترد تترى عن تفاقم الفتن في ايطاليا بلاد القطاء الباحثين عن اسباب الجنايات فاستغربنا هذا الاتفاق وخصصنا هذه السطور للبحث في هذا الموضوع

رأينا منذ ثلاثين سنة رجلاً اعتراهُ مسٌّ في عقلهِ فقيَّدهُ ذووهُ بالسلاسل واتوهُ بشيخ ليخرج الشيطان منهُ فعزَّم عليهِ وحرق لهُ البخور ورشَّهُ بالماء . ولما لم تجدِ هذه الوسائل لفَّ امر ان يُضرَب بالاحذية على رأسهِ وظلَّ يتفنَّن في اساليب تعذيبهِ الى ان زهقت روحهُ. ولقد كان الضرب والتعذيب اشهر الادوية لعلاج المجانين في الاقطار الشرقية والغربية ولعلها باقيان حتى الآن معتمد الذين يعتقدون الجنون مسًّا من الشيطان . قابلْ ذلك بما تراهُ في كل بيمارستان في اوربا واميركا بل في بيمارستان المجاذيب في هذه العاصمة تجد الناس قد اقلعوا عن ذلك المعتقد وصاروا يحسبون الجنون مرضاً يعالج بألطف الوسائل الادبية والمجانين مرضى يعتنى بهم اكثر مما يعتنى بالعقلاء

ويقول جمهور الاطباء والفسيولوجيين الآن ان الميل الى ارتكاب الجرائم مرض ايضاً ويجب ان يُعالج بالوسائل الواقية اذا لم تجدِ معالجتهُ بالوسائل الشافية

واوَّل من بحث في هذا الموضوع بحثاً علمياً مدققاً الاستاذ لمبروزو الايطالي وهو اسرائيلي

الاصل من آل موسى المشترع الاول ومستوضع بلاد ايطاليا بلاد الشريعة الرومانية اساس القوانين المتبعة الآن. ولقد قال هو والذين يشعبون مذهبهُ كما قال هور من شعراء قديم الزمان ان العقل السليم في الجسم السليم mens sana in corpore sano وان الجناية فعل غير سليم وسببهُ خلل في الدماغ والاعصاب دائمٌ فيها او عارض عرض عليها فجأة او تكرَّر فصار دأبًا لها لان الاعضاء السليمة لا تعمل الاَّ الافعال السليمة. ولذلك اهتمَّ رعاة هذا المذهب بدرس ادمغة المجرمين واعصابهم وسائر اعضائهم من حيث طولها وعرضها وثقلها ونسبتها الى غيرها ولم يكتفوا بدرس الاعضاء الظاهرة بل درسوا الاعضاء الباطنة ايضًا كالقلب والكبد والامعاء والكليتين. وكل الوظائف التي تؤثر في وظائف الدماغ كالدورة الدموية وهضم الطعام فظهر لهم ان المجرمين يفرقون عن غيرهم من الناس المسالمين فروقًا كبيرة وان ادمغتهم تكون مختلفة عن ادمغة المسالمين شكلاً وحجمًا وهي في الغالب صغيرة وفيها ادلة على ان نموها توقَّف قبل ان يبلغ حدَّهُ وتداريز الجمجمة التحمت قبل ميعاد التحامها فمنعت الدماغ من بلوغ حدّهِ في النمو. وفي الدماغ نفسهِ ادلة واضحة على انحطاطهِ لتقرُّبهِ من ادمغة المتوحشين والقرود كأنَّ المجرمين عادوا الى ما كان عليهِ اسلافهم الاقدمون جريًا على ناموس الرجعة او وقع فيهم الخرص كما يقع عادةً في بعض افراد النوع ولذلك امثلة كثيرة في غير نوع الانسان

وقد يكون اختلال الدماغي من آفة اصابت الدماغ في الصغر بسبب جرح او كسر فبقي في صاحبهِ مدى العمر ويدفعهُ الى ارتكاب ما يجنبهُ لو كان سليمًا

والخلل في قوى النفس افعل من الخلل في وظائف الدماغ والاعضاء وذلك يكون بخرص بعض قواها وعمر البعض الآخر. ومن القوى التي تقوى في المجرمين وتقوى فيهم كثيرًا العُجْب والاعتداد بالنفس والمباهاة بالجرائم. ومن القوى التي تضعف فيهم وتخرص تبكيت الضمير او الندامة على الذنوب. ذكر لمبروزو ان ثلاثة من القتلة قتلوا رفيقًا رابعًا لهم وصوَّروا انفسهم صورة فوتوغرافية وهم يقتلونهُ لكي يتشدق بهم سائر المجرمين

والغالب ان يكون العُجْب قوى دافع يدفع المجرمين الى ارتكاب الجرائم وهم في سن المراهقة السن الذي يكثر فيهِ ارتكاب الجنايات. ومعلوم ان الناس يكونون تحت سلطان العواطف في هذا السن فلا عجب اذ افرط الذين فيهم خلل عقلي او ادبي يتحهم من كبح جماح العواطف. واذا غلبت على المرء عادت السكر وخلاعة واضطرَّ الى المال للانفاق على شهواتهِ سهل عليهِ ارتكاب الجرائم التي منها كسب. وقد يبلغ الخلل في عواطفهِ انهُ يسهل عليهِ قتل اخيهِ وامهِ ثم هو يخاطر بنفسهِ لاجل واحد من رفاقهِ. والغالب ان هذا الخلل يصيب النساء اكثر من الرجال

وقد وجد لمبروزو بالاستقراء ان المجرمين مغرمون بالوشم جداً فصارت حكومة ايطاليا تنظر الى الجنود الموشومة ابدانهم بعين الحذر مخافة ان لا يحسنوا السيرة. ووجد ايضاً انهم اقل شعوراً بالالم من غيرهم

وخلاصة ما تقدم ان الدافع الذي يدفع بعض الناس الى ارتكاب الجرائم الكبيرة مثل القتل والسرقة وما اشبه هو خلل في اجسامهم وعقولهم. فالجانين والمجرمون من قبيل واحد وليس المراد بذلك ان كل مجرم مجنون بل ان الفريقين مصابان بخلل في عقولهم وهذا الخلل مختلف النوع فيظهر في الفريق الواحد جنوناً وفي الفريق الآخر جناية. وهو وراثي في الفريقين على الغالب

وقد قسم لمبروزو المجرمين الى قسمين كبيرين الاول الذين يولدون وفيهم دافع يدفعهم الى ارتكاب الجرائم والثاني الذين يعرض لهم الدافع لارتكاب الجرائم عرضاً. والاولون من نتاج الانحطاط في النوع والخرض في وظائف الدماغ والغالب انهم يرتكبون الجرائم بعد النظر والروية. والآخرون من الذين غلبتهم اهواؤهم فانقادوا اليها حتى اذا حدث ما يدعو الى اهاجتها دفعتهم الى الجريمة رغماً. وقد يمتزج هذان الفريقان وتجتمع اخلاقها في الشخص الواحد فيميل الى ارتكاب الجرائم طبعاً لخلل في دماغه ويرتكبها فجأة من غير تروٍ كأنه يفعل ذلك بما يسمّى عند الفسيولوجيين بالفعل المنعكس

واذا تقرّرت هذه المبادئ سهل البحث عن كيفية علاج المجرمين لتقليل الجرائم او لاستئصالها. ومن مذهب لمبروزو انه يجب الاعتماد في ذلك على تربية الصغار وتهذيب عقولهم. وعنده ان الاسلوب الانكليزي لتهذيب اولاد الفقراء خير الاساليب الموصلة الى هذا الغرض. اي يجب الالتجاء الى الوسائط المنعية في الصغر اما اذا شبّ المرء على ارتكاب الجرائم فالامل باصلاحه قليل جداً وحسبُ الحكومة ان تكفي الناس شرّه بمنعه من الاضرار بغيره

ومعلوم ان القوانين تفرض العقاب على مقتضى الجريمة كما كان الاطباء يصفون الدواء على حسب الداء اما الآن فقد صار الاطباء يعالجون المريض لا المرض وكذلك على القضاة ان يلتفتوا الى المجرم لا الى الجريمة فيعالجوه علاجاً يمنعه من الاضرار بغيره. وعلى الحكومة والمجتمع الانساني كلهِ ان ينظروا في تربية الصغار وتهذيبهم لكي ينزع منهم الميل الى ارتكاب الجرائم وتقوى فيهم الاخلاق الفاضلة التي تعصمهم من ارتكابها. وعلى رجال القضاء بنوع خاص ان يتتبعوا خطوات رجال العلم ويستفيدوا من الحقائق العلمية التي كشفوها لهم اذا ارادوا ان ينفعوا الناس بالقضاء اعظم نفع